

الكَشْكُولُ اللُّغَوِيُّ (١)

الكَشْكُولُ - المِخْلَاةُ - الكُنَّاشُ
الْكَنِيسُ - الكَنِيسَةُ - الكَنِيسَتُ

أ. د. رفعت هزيم (*)

لم يرد لفظ «الكَشْكُولُ» في «الصحاح» أو «لسان العرب» أو «القاموس المحيط» أو سواها من المعاجم، ولم يرد - فيما أعلم - في تصانيف المتقدمين وأشعارهم، وربما كان أول الأمر في لغة العامة؛ ولذا تجنّب اللغويون والأدباء حتى القرن العاشر الهجري الذي عاش فيه بهاء الدين محمد بن الحسن العاملي الحارثي (٩٥٣-١٠٣١هـ/١٥٤٧-١٦٢٢م)، وهو عالم وأديب من الشيعة الإمامية، وُلد في بعلبك، ورحل - وهو فتى - مع أبيه إلى قزوين، وأجاد الفارسية، وزار مصر والشام، وأدى فريضة الحج في مكة المكرمة، ثم استقرّ في أصفهان، وتوفي ودُفن هناك. ويظهر أنّ العاملي كان أول من استعمل هذا اللفظ في لغة العلم والأدب، إذ جعل «الكَشْكُولُ» عنواناً لواحدٍ من أشهر مؤلّفاته، وهو كتابٌ موسوعيٌّ في خمسة مجلّدات، حكى في مقدمته سبب تأليفه والداعي إلى اختيار عنوانه، ويبيّن منهجه وأجمل مضمونه، فقال: إنه أَلَفَ قبله كتاباً سمّاه «المِخْلَاةُ» حوى «من كل شيء أحسنه وأحلاه»، وذكر أنه ضمّنه «ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين من جواهر التفسير وزواهر

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

التأويل، وعيون الأخبار ومحاسن الآثار، وبدائع حكم يُستضاء بنورها، وجوامع كليم يُهتدى ببورها، ونفحات قدسية... وأبيات رائعة...، وحكايات شائقة»، ثم عشر بعد انتهائه من تأليفه «على نوادر تتحرك لها الطباع، وتهش لها الأسماع، وطرائف تسر المحزون، وتزري بالدرّ المخزون، ولطائف أصفى من رائق الشراب وأبهى من أيام الشباب، وأشعار أعذب من الماء الزلال وألطف من السحر الحلال، ومواعظ لو قرئت على الحجارة لانفجرت أو الكواكب لانتشرت، فاستخرت الله تعالى ولققت كتاباً ثانياً جعلته كسفيط مختلط رخيصه بغاليه، أو عقد انقصم سلكه فتناثرت لآليه، وسميته بالكشكول ليُطابق اسمه اسم أخيه، ولم أذكر شيئاً مما ذكرته فيه، وتركت بعض صفحاته على بياضها لأفيد ما يسبح من الشوارد في رياضها، كيلا يكون به عن سعة ذلك نكول، فإن السائل في معرض الحرمان إذا امتلأ الكشكول»^(١).

ولتفحص عنواني الكتابين كي نفهم سبب اختيار العاملي لهما، فأما الأول فقد بين اللغويون اشتقاقه ومعناه، فقال الليث: «الخلي: هو الحشيش الذي يُحتش من بقول الربيع، وبه سُميت المخلاة، وقال اللحياني: خلى في المخلاة: جمع»^(٢). وأما «الكشكول» فلعل «محيط المحيط» أول من أورده، فذكر أنه لفظ فارسي لـ «قدح المكدي يجمع فيه رزقه»، ثم بين أدي شير أصله الفارسي، فهو «مركب من: كش؛ أي: جرّ، ومن: كُول، أي: كتف»^(٣)، ويُطلق على «وعاء يدوره الشحاذون بأيديهم، وكيس الفقراء يضعون فيه حاجياتهم»^(٤). وهذا يعني أن العاملي أهمل الدالتين المعروفتين للفظين العربي والفارسي،

(١) العاملي ٤.

(٢) اللسان (خلي).

(٣) أدي شير ٦.

(٤) المعجم الذهبي: ٤٦٩.

واستعملهما مجازاً بمعنى «المختارات» اليوم؛ ليجعلهما عنوانين لكتابه؛ لأنهما يتضمنان موضوعات شتى، فيناظران بذلك «المخلاة» و«الكشكول»؛ لأنهما يحويان كل ما جُمع، وقد صرّح بنفسه بأنهما - عنده - مترادفان.

وبالرغم من أن العلماء والباحثين أثنوا على كشكول العمالي فإن هذا اللفظ ما يزال إلى اليوم مهجوراً، غير أن لفظاً آخر يشبهه في الدلالة ويشاركه في العجمة، ويستخدم عنواناً للتأليف هو «الكُنَّاش» الذي أهمله «الصحاح» و«لسان العرب» و«القاموس المحيط» أيضاً، غير أن صاحب «التاج» ذكر أن الكُنَّاشَة «أوراق تُجعل كالدفتري يُقَيّد فيها الفوائد والشوارد للضبط، هكذا يستعمله المغاربة، واستعمله شيخنا في حاشيته على هذا الكتاب كثيراً»^(٥). ولكن الشهاب الخفاجي الذي سبقه بقرن ونصف (ت ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م) ذكر أصل اللفظ وأوضح دلالاته، فقال: «كُنَّاش بتخفيف النون بزنة غُرَاب: لفظٌ سريانيّ معناه المجموعة والتذكرة، والكُنَّشُ: الجماعة كما أخبرني به بعض الثقات من الأجناد»^(٦). ويثبت ذلك أنه في السريانية kônâšâ - بالتخفيف أيضاً - «مجموعة، جَمْعٌ» وهو من الفعل الثلاثي knaš «جمع، ضمٌّ»^(٧). ثم بيّن الخفاجي موضع استعماله، فقال: «وقد وقع هذا اللفظ كثيراً في كلام الحكماء وسمّوا به بعض كتبهم، كما يعرفه من طالع كتب الحكمة»^(٦). ويؤكد الطبيب المعروف ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ/١٢٧٠م) ذلك؛ لأنه يورد في كتابه «عيون الأنباء في

(٥) التاج (كنش)، ولم يذكر الكُنَّاش، وهو مصدر ما ورد في «محيط المحيط» و«المعجم الوسيط» اللذين حدوا حدوه.

(٦) شفاء الغليل: ٢٦٣.

(٧) برصوم ١٥٥، وفي السريانية أيضاً الفعل المضعف kanneš بالدلالة نفسها، وفي نخلة ٢٠٤: كُنَّاشَة knišôta: مجموعة كالدفتري فيها فوائد وشوارد.

طبقات الأطباء» هذا اللفظ مراراً عنواناً لمؤلفات كثيرة يجمع بينها أنها كلها في الطب، وأن معظم مؤلفيها الذين يقولون: «إنهم من الأطباء المشهورين بعد وفاة جالينوس» مسيحيون وبعضهم من السريان^(٨)، ومنهم أهرون المعروف بالقسّ الذي عاش قبل الإسلام، وألّف كتاباً بالسريانية في ثلاثين مقالة ثم ترجمه إلى العربية طيب البصرة ماسرجويه اليهودي المعاصر لأبي نواس، وجورجيس بن جبريل بن بختيشوع الذي كان عند الخليفة المنصور في بغداد، وله: «الكنّاش» بالسريانية، وحنين بن إسحق (ت ٢٩٨هـ / ٩١١م) صاحب «كناش الخفّ»، وعلي بن العباس المجوسي الذي كان طبيباً لعضد الدولة البويهية (٣٣٨-٣٧٢هـ / ٩٤٩-٩٨٢م)، وله: «القانون العضدي في الطب» أو «الكنّاش الملكي». ويظهر أن شيوع استخدام هذا اللفظ في الطب جعل المؤرّخين وأصحاب الموسوعات يُقبلون على استعماله في هذا المجال، وإن لم يفعل المؤلفون، فقد سمّى أبو بكر الرازي (ت ٣١١هـ / ٩٢٣م) أحد كتبه «كتاب الطب المنصوري»، ولكن البيروني (ت ٤٤٠هـ) هو الذي سمّاه «الكنّاش المنصوري»! ومع أن الهيمنة كانت للطبّ استعمل اللفظ عنواناً لكتبٍ في موضوعات أخرى، ومنها «كنّاش الجدل بين المخالف والنصراني» لسعيد ابن البطريق الذي كان بطريق الإسكندرية عام ٣٢١هـ، ومؤلف وضعه الأديب الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب (ت ٧١٣هـ / ١٣٧٤م)، وقال فيه: إنه «كنّاش منظوم في عروض الرجز محذوف الفضول، لا غاية فوّه في الأراجز»، ومجموعة منتخبات في علم النحو لحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م) سمّاها صاحبها - كما يقول دوزي^(٩) - كنّاشاً.

(٨) تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ج ٤ ص ٢٥٧-٣٠٥.

(٩) دوزي ١٥٢/٩.

وليس الاسم «الكُنَّاش» المصوغ من الفعل الثلاثي knaš - بالشين المعجمة - في السريانية هو اللفظ الدخيل الوحيد من هذا الفعل في العربية، فالألفاظ الدخيلة الثلاثة: «الكنيس» و«الكنيسة» و«الكنيست» مشتقة منه أو من نظيره kanas «اجتمع، تجمّع» - بالشين المهملة - في العبرية ليدلّ أولها (في العبرية: kneset bet «بيت الاجتماع») على «مُتعبّد اليهود»، وثانيها (knesâ) على «مُتعبّد المسيحيين»، وثالثها (kneset) - وهو حديث - على «البرلمان الإسرائيلي» الذي أقامه الصهاينة بعد الاحتلال عام ١٩٤٨.

وربما ظن المرء أن الفعل «كَنَّس» في العربية لا يقابل الفعل kanas في العبرية أو knaš - بالشين المعجمة في السريانية -، فلو نظر في «اللسان» لوجد أن معنى «كنسَ الموضوع: كسح القمامة عنه» وهو المعنى الذي تعرفه العامّة، فكيف يجوز أن نقرن التعبير عن جمع القمامة بالدلالة على بيوت الله؟ والجواب أن الدلالة الأصلية للفعل في العبرية والسريانية هي «الاجتماع» و«التجمّع»، ولننظر تتمة ما يقوله ابن منظور في الدلالة الأصلية للفعل العربي: «قال اللحياني: كُنَّسَهُ البيت: ما كُسِحَ منه من التراب فأُلقي بعضُه على بعض» أي: أنها تُسمّى كذلك لأنها مجموعة، ثم يبيّن سبب تسمية كناس الطبي فيقول: «لأنها تَكُنُّسُ الرَّمْلَ حتى تصل إلى الثرى»؛ أي: لأنها تجمّع الرمل في الموضوع فيكشف لها ما كان تحته من الثرى. ويقول في موضع آخر: «الكُساحةُ: الكُناسة، قال اللحياني: كُساحةُ البيت: ما كُسِحَ من التراب فأُلقي بعضُه على بعض، والكُساحةُ: تراب مجموع»^(١٠). فيكون اللفظان مترادفين، ويكون المعنى في كليهما هو «الجمّع» و«التجمّع» أيضاً، ولا يُستتج من ذلك أن الكنيس والكنيسة والكنيست عربية؛ لأن العربية أخذتها من اللغتين اللتين

(١٠) اللسان (كسح).

استعملهما واضعو هذه الألفاظ، وهما العبرية والسريانية. وإذا كانت «الكنيسة» سُمّيت كذلك بالعبرية والسريانية؛ لأنها مكان الاجتماع والتجمّع، فهي كذلك في اسمها باللاتينية Ecclesia المنقول عن Ekklesia باليونانية، ومعناه «المجمع، الاجتماع»، وهي التي ذكرها المتقدمون بصيغة «القليس» اسماً للكنيسة التي بناها أبرهة الأشرم في صنعاء^(١١). وبَيَّن نولدكه - كما ينقل عنه فرنكل - أن «القليس» ليست سوى تعريب للفظ اليوناني المذكور^(١٢). ولا يخرج مُتَعَبَّد اليهودية (bet kneset) المُسمّى Synagogue بالإنكليزية والفرنسية عن هذه الدلالة، فهو من Synagoga باللاتينية المنقول عن Synagôgê باليونانية والمعنى نفسه. والطريف أن ذلك ينطبق على تسمية «المسجد الجامع» في العربية؛ لأنه «الذي يجمعُ أهله، وهو نعتٌ له لأنه علامةٌ للاجتماع»^(١٣). وهذا يعني أن بيت العبادة سُمّي عند المسلمين والمسيحيين واليهود تسميات شتى - بلغات مختلفة - تتفق كلها في الدلالة، وقد فطن بطرس البستاني إلى ذلك فقال بعد إيراد تلك التسميات في معجمه: «والكلّ مأخوذ من معنى الاجتماع»^(١٤).

وذكر ابن منظور أن «الكنيسة لليهود، وجمعها كنائس»، ونقل عن الجوهري أنها للنصارى كذلك. والظاهر أنها كانت عند المتقدمين لكلتا الديانتين، إذ ذكر المقدسي (ت ٩٩٠م) «كنائس اليهود والنصارى» في بيت المقدس، وذكر ابن عساكر (ت ١١٧٦م) كنيسة اليهود في دمشق، وتحدث ابن كثير (ت ١٣٧٢م) عن كنيسة اليهود في بغداد. وقد ورد لفظ «الكنيسة» للمسيحيين في قول الشاعر الجاهلي المسيحيّ عدي بن زيد:

(١١) ابن هشام ٢٦.

(١٢) Fraenkel 275.

(١٣) اللسان (جمع).

(١٤) محيط المحيط ٧٩٤.

بزجاجةٍ ملء اليدين كأنها قنديلٌ صبحٍ في كنيسة راهبٍ
 أما لفظ «الكنيس» الشائع اليوم لبيت العبادة عند اليهود فقد أهمله
 دوزي، ولعل بطرس البستاني أول من ذكره، قال: «وأما المولدون فيسّمون
 مُتعبّد اليهود بالكنيس»^(١٥)، وهذا يعني أنه حديث العهد.

فما أصل لفظ «الكنيسة»؟ لقد ذكر ابن منظور أنّها «معربةٌ أصلها
 كُنِشتُ»، والمذهب السائد هو أنّ العربية أخذته من 'knwšt في الآرامية
 اليهودية'^(١٦)، والظاهر أنّ «كُنِشتُ» هذه هي kenÔštâ السريانية؛ أي: كنيسة
 المسيحيين، وهي ترجمة لـ Ekklesia اليونانية^(١٧). أما knesâ في الجعزية -
 أقدم لغات الحبشة - فيرى نولدكه أنها من «كنيسة» في العربية^(١٨)، في حين
 يرى آخرون ومنهم لسلاو أنّ أصل العربية والجعزية واحد، وهو الآرامية
 والسريانية أو العبرية^(١٩) Leslau 288.

وسيكون في هذه المجلة باب ثابت يُبحث فيه ألفاظُ في العربية تحتاج إلى
 بيان أصولها أو اشتقاقها أو دلالاتها وفق هذا المنهج، وقد جرت المفاضلة
 لتسميته بين العناوين الثلاثة «الكشكول» و«المخلاة» و«الكُنّاش»، فانتَهت إلى
 استبعاد «المخلاة»؛ لأنه يرتبط في الأذهان بالعلف والحيوان، و«الكُنّاش»؛ لأنه
 غلب على ما يُكتب في الطب، ولذا كان اسمه «الكشكول اللغوي».

* * *

(١٥) محيط المحيط ٧٩٤.

(١٦) WKAS, I.385 + Fraenkel 275، و قارن ب KBL 461.

(١٧) برصوم ١٥٦.

(١٨) Nöldeke 37.

(١٩) Leslau 288.

المصادر والمراجع

بالعربية:

- الألفاظ السريانية في المعاجم العربية: مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم، دمشق ١٩٥١.
- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان ج ٤ ترجمة السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب ط ٢، القاهرة ١٩٧٧.
- تكملة المعاجم العربية: رينهارت دوزي، ج ٩ ترجمة جمال الخياط، بغداد ١٩٩٩.
- تهذيب سيرة ابن هشام: عبد السلام هارون ط ٦، القاهرة ١٩٨٩.
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدّخيل: شهاب الدين الخفاجي، تحقيق محمد كشاش، بيروت ١٩٩٨.
- غرائب اللغة العربية: رفائيل نخلة، ط ٣، بيروت ١٩٨٤.
- الكشكول: بهاء الدين العاملي، القاهرة ١٢٨٨هـ.
- لسان العرب: ابن منظور، بيروت د.ت.
- محيط المحيط: بطرس البستاني، بيروت ١٨٧٠.
- معجم الألفاظ الفارسية المُعرّبة: السيد أدّي شير، بيروت ١٩٨٠.
- المعجم الذهبي: محمد التونجي، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠.

باللغات الأجنبية:

- Fraenkel, S.: Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen. Leiden 1886, Neud. 1982.
- Jeffery, A.: The foreign vocabulary of the Qur'an. Baroda 1938.
- KBL = L. Koehler & W. Baumgartner: Hebräisches und Aramäisches Lexikon zum Alten Testament. 3 Auflage. Leiden 1967- 1995.
- Leslau, W.: Comarative Dictionary of Gecez. Wiesbaden 1987.
- Littmann, E.: Morgenländische Wörter im Deutschen. Tübingen 1924.
- Nöldeke, Th.: Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft. 1910 Neud. Amsterdam 1982.
- WKAS: Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache, Bd. I. hrsg. von M. Ullmann. Wiesbaden 1970.

* * *